مدخل الى
عالم «النورسي» الفكري

(١)

ترك « النورسي » للأجيال من بعده إرثاً فكرياً متشعب الجوانب، وأنشأ عالماً تتلاطم فيه الأفكار والأحاسيس والمشاعر، في وحدة معرفية متشابكة الجذور، وتَوحُّدٍ ذاتي لا يعرف الانقسام بين نوازع الذات المختلفة .

فأفكاره وأحاسيسه ومشاعره يموج بعضها ببعض، ويندرج بعضها ببعض، ويَشُدُّ بعضها أزْرَ بعض.

ولأنَّه قد أُوتي نفساً تواقةً الى حقائق الحياة والوجود. ومُنِح عقلاً طموحاً، فقد عزف عن الخوض في الضحضاح من المفاهيم والأفكار الإيمانية التقليدية الجاهزة. ودفعه شغفه بالحقيقة الى الكشف عنها بنفسه، فانكبّ على القرآن يتأمل في أسراره، ويوغل في هذا التأمل بتفتح عقل، وصفاء وجدان، ورهافة حسّ، فدرب عقله على طريقة القرآن ومنهجه في عرض حقائقه، وخبرَ أسلوبه في ضرب الأمثال بالملموس على المعقول، وبالمشهود على المغيبِ، وبالمرئي علىٰ غير المرئي، فرصد بهذا المنهج ذلك التداخل الخفي الذي يشير اليه القرآن بين الوجود المتناهي المحيط

بالانسان،والوجود غير المتناهي الذي بشرت به الأديان. ودعا الى تفتح الوعي الانساني على أبعاد الوجودين معاً، لأنّ هذا الوعي قمينٌ بإشعال ضوء البصيرة في الانسان، وحقيقٌ أنْ يضعه في موضع الاختيار الحُرّ بين خطر التناهي والتلاشي والعدم، وبين السعي للحصول على موضع قدم في عالمِ اللاّتناهي والبقاء الأبدي.

فبالتوق الملتهب في نفسه الى الوجود المشفق من العدم، وبالشوق المضيء في ذرّات دمه الى حياة الأبد، وبالروح الجائع الى قوت الخلود والبقاء، أنشأ «النورسي» عالمَ فكره، وأقام صروح روحه، وفتح المنافذ والأبواب لكل التواقين أمثاله ليدلفوا الى عالمه الغريب، ويلمسوا عن كثب جلال الفكر اللهيف، وجمال الشعور الملتهب، وأسىٰ الروح العطش الذي لا تخمد ناره مادام له قلب يخفق، ووجدان ينبض.

فالتوق هو مفتاح هذا العالم لمنْ يريد الدخول فيه، والإفادة منه، والاقتباس من سرّ تماسكه وقوته، وأما أولئك الذين يطرقون أبوابه بنفوس جاسية، وقلوب ميتة، وعقول منطفئة. فلن تُفتّحَ لهم الأبواب لأنهم ليسوا من أهله، ولأنهم لا يحتملون لهب التوق المندفع كالشلاّل من روحه رافعاً معه مَن يلتقيه الى حيث الآفاق الإيمانية العالية ومظانّها في خفايا النفس والحياة والوجود.

فلو شئنا أنْ نطلق عليه إسماً يدّلُ عليه، ونُعْطيَهُ عنواناً لا يخطئه لأسميناه دون تردد «عالَمَ التوق والتواقين» الذين يرون في هذا التوق المعنى الذي يزيد وجودهم الإيماني امتداداً، ويمنحه أبعاده العقلية والحسّية والشعورية الجديرة بأن تكون موضع خطاب القرآن من الانسان.

(٢)

وهذا التوق الذي تفيض به كتاباته قد فجره في قلمه زلزال عقلي مرعب تعرض له في صباه، فهزّ عقله، وشحذ فكره، وشدّ أوتار حسّه، وأرهف حدّة بصره وبصيرته وألهب روحه ووجدانه، فغدا إنساناً محترقاً بتوقه، همه الملحّ الكشف عن عالم الخلود والعثور على الاسباب التي تؤهل اليه، وتوصل به.

وقد بلغ هذا التوق عنده أعظم و تائره إثر هذه التجربة الفريدة التي ذكرنا تعرضه لها في صباه.

ففي بيت متواضع في قرية «نورس» الأناضولية مسقط رأسه، وفي ليالي الشتاء الطويلة كان يجلس منزوياً في غرفة الضيوف يتسمع بجد واهتمام الى أحاديث الكبار من شيوخ القرية وهم يديرون حواراً بينهم وبين والده الزاهد الصوفي في قضايا الموت والحياة، والوجود والعدم، والبقاء والفناء، فيرتعش منه الروح، ويتفطّر منه القلب، ويتجسم أمام ناظريه شبحا البلى والفناء وكأنهما يدّبان نحوه، ويشرعان بامتصاص وجوده، وبالتهام حياته ثم يدفعان به شيئاً فشيئاً نحو هاوية العدم المخيف.

فينتفض بكل نزوعه الفطري الى البقاء والخلود، وخوفه من الفناء والعدم، وغدا هذا النزوع هاجسه الملحّ، وشغل فكره الشاغل، الى الحد الذي جعله يشعر بأنه ملزم أمام نفسه وأمام الحقيقة بالبرهنة على وجود عالم البقاء . وبالانتهاء في هذه القضية الى الحق المبين الملزم للانسان بالاطمئنان والتسليم.

وبهذا وحده يبدد خوفه وخوف الخائفين، ويذيب وجله ووجل المشفقين الذين يرون في صيرورتهم الى العدم في خاتمة المطاف عبثاً يتعالى

الخالق الحكيم أن يقبل به، بل هو منزه عنه، لان خلق الانسان، وإلباسهُ لباس الوجود كرم آلهي، وعطاء رحماني لا يمكن عقلاً وحدساً ان يسترد الكريم هباته، او يسترجع عطاياه.

فطالما اعطانا الوجود – جلّ شأنه – فلن يسلبه منا، لكنه يمكن أن يجمّد فاعلية الحياة فينا موقتاً عند انتهاء آجالنا والى حين إنتقالنا الى الآخرة عالم الحياة الذي لا موت معه، وعالم الوجود الذي لا عدم معه.

(٣)

فوجود الانسان هو نقطة المركز من دائرة عالمَ «النورسي» الفكري، وعقله موضع نقاشه وقلبه وروحه مُتلمّس بصيرته وإنه لا ينى يشعل في الانسان نوراً إيمانياً يبصر به مواقع الزلل والخطأ في الفكر والسلوك. ويضع يده على مفاتيح الحق والعدل والجمال في النفس والحياة، ويزيح الاستار عن طهر الحياة وقداستها، ويبرهن له أنها أصل الخلق والوجود، بينما الموت خلقٌ عارض ليس له قوة إلغاء الحياة أو إيقاف مدّها الزخّار الى بحر الأبدية والخلود.

لقد سبر «النورسي» غور الانسان بمسبار القرآن، وجال في آفاق نفسه، وأوغل في مجاهيل ذاته، وعاد من رحلته الاستكشافية هذه ليقرر أنّ «الانسان» حجة القرآن على الانسان نفسه، وأنه العالم الاصغر الذي ينطوي على ما ينطوي عليه العالم الأكبر من المناقضات والاضداد؛ ففي وجوده عدم وفي عدمه وجود، وفي حياته موت وفي موته حياة، وفي شهوده غيب، وفي غيبه شهود، وبكلمة جامعة يتجاور فيه سلبه وإيجابه، إلاّ أنه تُرك له الخيار، ومنح الارادة ليربط أسبابه بأسباب أيٍّ من السلب او الايجاب.

ويرى «النورسي» أنّ ما أُودع في الانسان من غيوب إنما هي رموز ترمز و تومئ الى غيوب ماوراء هذا العالم، و تؤكد حقيقة وجودها، وأنّ ما نتخيله من حدود وسدود بين عالمي الغيب والشهادة إنما هو وهْمٌ من جملة أوهامنا الكثيرة، فالحقيقة أنهما متجاوران و متلامسان ومندرج أحدهما بالآخر، ومتفاعلان فيما بينهما في هدوء وخفاء غير منظور كما يحدث ذلك في الانسان نفسه.

فالانسان – في الحقيقة – غيب في هيكل شهودي، فروحه غيب، وضميره غيب، وذاكرته غيب، وخياله غيب، وحدسه غيب، وأحلامه غيب، و«أناه» غيب، فالكشف عن الصلة القوية بين غيوب الانسان وغيوب ماوراء هذا العالم يشكل جانباً مهماً من جوانب المعرفة الايمانية التي كرس لها «النورسي» صفحات كثيرة من رسائله.

فواحد من غيوب الانسان هو «أناه» المودع في عمق أعماقه، ففيه مفتاح العالم، وفيه العقل الذي يعقل به الوجود، والحسّ الذي يقتحم به عالم الممكنات.

فإنْ أدار هذا المفتاح في أقفال السموات والأرض انفتحت له، وكشفت عن أسرارها، وأشارت الىٰ موجدها، وعينت له موقعه من العالم، وحجمه الذري إزاء كبرياء الله وعظمته وجبروته .

ولكنّ «أنا » كثيراً ما ينسىٰ حجمه، ويغفل عن موقعه، فيتيه عُجْباً ويختال افتخاراً على السموات والارض والجبال بتحمله سرّ أمانة التكليف، وبمنحه الإرادة والقدرة على الاختيار والترجيح.

«فالنورسي» يحذر الانسان من السقوط في مهاوي «أنا » ويحثه على الارتقاء الى مرتبة «الانسان الصعب» الذي يستعصي على الابتلاع

والسقوط بين شدقيه عندما يملأه الغرور. ويتوهم أن ما يملكه من صفات إنما هي صفات ذاتية الوجود فيه، وليست اعتبارية ومنحة ربانية، فينقلب بتنكره وجحوده الى طاغوت مخيف يستعبد صاحبه، ويستعبد الآخرين من حوله، فيتضخم ويستغلظ ويتورم ويصرخ بلسان فرعون : ﴿ **أنا ربكم الاعلىٰ** ﴾(النازعات: ٢٤) وبلسان النمرود: ﴿ **أنا أُحيي وأميت** ﴾(البقرة: ٢٥٨).

ولهذا السبب كثيراً ما يتحرج الاتقياء الصالحون والاولياء المقرّبون من الاشارة الى أنفسهم بكلمة «أنا» تورعاً من أن يتحرك في أنفسهم - بتكرار هذه الكلمة - عرق «أناهم» في العجب والكبر الماحق لكل حسنات التقوىٰ والصلاح.

(٤)

وكما حذر «النورسي» الانسان من السقوط في مهاوي «أنا» داخل النفس، حذره كذلك من السقوط في سجن الكون خارج النفس.

وبالرغم من أنّ «الكون» يمثل لدىٰ «النورسي» الهيكل المرآتي الذي يعكس صوراً متتابعة ممّا ينطوي عليه من الحكمة والنظام والجمال والعلم والقدرة والإرادة والمعنىٰ والمغزىٰ المبطلة لكل أوهام العبثية والتصادفية في الخلق والإيجاد. الا أنه لا يسأم من تنبيه الانسان الى عدم الاستغراق فيه الىٰ الحد الذي يجد فيه نفسه وقد ابتلعه الكون، وحبسه في ضيق سجونه، لينسيه مكوّن الكون وخالق الكائنات كما هو الشأن عند البعض ممّن استعبدتهم الطبيعة واسترقّتهم سننها و نواميسها.

«فالكونية» حين ننأى بها أن تكون سلّمنا للإرتقاء الىٰ المعرفة الإلهية تصبح - في نظر الإيمان مهما قدمت من معارف التقدم الحضاري -

هبوطاً معرفياً لا ينبغي للانسان الوقوف عندها والاستغراق فيها، أو اعتبارها خاتمة المعارف التي لا معرفة فوقها . فهذا الهبوط المعرفي هبوط من حرية «اللاّكونية» الى سجون «الكونية» ونزول بالمعرفة من الأعلى الى الأسفل، وانحدار في الفهم والادراك من «اللانهائي» الى «النهائي» وانتقال في الزمن من البقاء والخلود الى الزوال والعدم.

فسيدنا «ابراهيم عليه السلام» يضيق صدره بالكون كله، ويجهد للنفاذ من بين جدرانه، والخلاص من قيوده وكسر أغلاله، والارتفاع بمعرفه نحو «اللاكونية» فأعطىٰ للبشرية نموذج الانسان الذي يلهبه التوق الى المعرفة الإلهية التي هي أعلىٰ المعارف بمقولته الخالدة التي نطق بها القرآن على لسانه وهو يدير طرفه الكسير في آفاق السموات والأرض، فيصرخ مستغيثاً: ﴿**لا احب الآفلين**﴾(الانعام: ٧٦) أى أريد خلاص نفسي من سجن الكون الذي سيأفل عاجلاً أم آجلاً، وأريد الانطلاق الى عالم البقاء والوجود الذي لا يزول ولا يحول، حيث المعرفة المطلقة التي تتهافت إزاء كل معارف الكون بنسبيتها ومحدوديتها.

هكذا يفسر «النورسي» كلمة «ابراهيم عليه السلام» وينشئ في معناها كلاماً يذوب شوقاً وحنيناً الى عالم «اللاكونية» الخالد الذي يتوق اليه كل انسان.

فالمعرفة الكونية هي حصيلة بحث الانسان وتجربته ومعاناته، لكنها تبقىٰ مع ذلك معرفة تحتية يهبط اليها الانسان من سماء التكريم الذي حظي به من ربّ العالمين، لأنه خُلِق بالاصل ليكون حجة الله على الانسان، وليكون في الوقت نفسه فيَ خدمة الانسان. فكلما اتسعت معرفته به اتسعت قدرته على تسخيره لمنافعه ومصالحه الدنيوية وليس العكس.

أما المعرفة الإلهية فهي معرفة فوقية مرتبطه بعرش الرحمن، ولا يرقىٰ اليها الانسان إلاّ إذا استجمع كل طاقاته، واستنفر قوى «العقل والحسّ والشعور والخيال والحَدْسِ» لتفتح له الطريق اليها، ولتكون رديفته في الفهم عنها ودرك مراميها و مقاصدها.

فما من لطيفة من لطائف «النفس الانسانية» كما يرىٰ «النورسي» إلاّ وقد أودعها الله تعالىٰ في الانسان لإعانته في الكشف عن حقائق عالمي الغيب والشهادة.

ورغم أهمية «العقلِ» في هدي الانسان الى الحق والحقيقة إلاّ أنّ «الحسّ والشعور والحدْس والخيال» هذه القوىٰ النفسية لا تقلُّ أهميةً عن العقلِ، بل هي من جنود العقل الذين يستعين بهم في مهامه، ربما فتح «الحدْس والخيال» الطريق أمام العقل للكشف عن حقيقة ما حار العقل وحده بالكشف عنها.

(٥)

وحقائق القرآن تقع من نفس المسلم موقع الإيمان و التصديق، وتنزل من وجدانه منزلة اليقين الذي لا ريب فيه. غير أنّ الحاجة كانت وما زالت قائمة الى تجلية هذه الحقائق، والغيبية منها بشكل خاص. ونقل صورها من الإطار الذهني غير المرئي الى الإطار الحسّي المشهود، عبر اسلاك الخيال، ومجسّات الحدْسِ والشعور.

فالميزة التي يكاد ينفرد بها «النورسي» وهو يعالج حقائق القرآن في رسائله، تكمن في قدرته العجيبة على إدراج الذهني منها بالحسّي، وإفراغ الحسّي منها بالذهني، وربط الزمان الدنيوي الفاني بالزمان الاخروي الأبدي، وكسر الحاجز الوهمي بين الدنيا المدبرة، والآخرة المقبلة. فيحسّ

قارئ رسائله وكأنّ الآخرة أقرب اليه من دنياه، وإنه يتنفس أريجها، ويستجلي جمال جنّاتها.

فالمعرفة الإيمانية إذن ليست سواء لدىٰ المسلمين جميعاً، بل هي متفاوتة الدرجات و متباينة في عمق الفهم وسعة الإدراك . فكما أنّ معرفة «القمر» من خلال رؤيته بالعين المجردة ليست كَمَنْ يعرفه من خلال مرصد فلكي، ومعرفة هذا الأخير ليست كمعرفة من يراه وهو علىٰ متن سفينة فضائية. وأوسع الجميع معرفةً به هم الذين نزلوا فوقه، ومشوا على أديمه، فهكذا القران – ولا مشاحة في المثال – فالمسلمون كلهم يؤمنون بحقائقه، إذْ لا يصح اسلامهم من دون هذا الإيمان، ولكن ثمّة تفاوتاً في درجات المعرفة بهذه الحقائق، فمنهم مَنْ يكتفي برؤاه وحدها، ومنهم من يستعين بعين غيره، وأعظمهم معرفة هم الذين يهبهم الله تعالىٰ من سعة الفهم والادراك ما يجعلهم قادرين على النزول على معانيه والهبوط على كنوزه، واكتشاف درره وجواهره.

والذي يبلغ هذا الشأوَ العظيم من الفهم والإدراك، هو وحده الجدير بالنظر الى حقائق القرآن ومعاني الإيمان من خلال بصره وبصيرته. وهو مجدد عصره الذي تتوجّه اليه الأجيال، و تشرئب له عقول الفحول من الرجال لتقتات بفكره، و تحيا على إرثه، الى أن يقيض الله تعالى مجدداً آخر يتسلم منه الأمانة ويمضي بها مقاوماً كُلّ من يريد قذف الإيمان خارج الزمن، وإبعاده الىٰ المكان الذي ينعدم فيه ثقله الفكري ويفقد وزنه المؤثر في التاريخ .

وهكذا قُدّرَ «للنورسي» أن يتسلم راية الإيمان في بلده وهي تترنح وتكاد تتهاوىٰ تحت أقدام الاعداء، فغدت مهمته الأولىٰ الأكثر إلحاحاً إنما

هي إنقاذ الأيمان، و مقاومة التآمر علىٰ الدين، وإحباط المحاولات المسعورة لقذفه خارج الزمن بالكلية، وإسقاطه بالتمام في يمّ النسيان، وتجريده من محتواه الحركي، ومن ثقله في ميزان التاريخ البشري بعامة والتأريخ الاسلامي بخاصة.

ورغم أنه نذر وجوده كله لإنقاذ الإيمان، والدفاع عنه، ورد نصال أعدائه الىٰ نحورهم، والبرهنة على أنه الحَق الذي هو فوق كل حق، وأنه الحياة الذي لا حياة دونه، الاّ انه لم ينس دعوة المسلمين – الى جانب ذلك – بالانفتاح الى روح العصر، وتحذيرهم من الإنكفاء والتشرنق داخل الذات بحجة المحافظة على إيمان المؤمنين من التيارات العصرية المناوئة للإيمان، ودعا المسلمين الى الجمع في حياتهم بين «إيمانية العلم» و «علمية الإيمان».

فالانفتاح على معطيات العصر وتفهم منعطفات سيره، ورصد أبعاده الفكرية والمذهبية، ليس بالضرورة من أجل الوقوع في تياره، أو السقوط في مذهبياته، بل من أجل المزيد من الفهم لما يدور حولنا. فنكون على تماس مباشر بعصرنا، فلا يُعاب علينا سقوطنا في اغتراب زماني عنه، فنصبح في هذا الاغتراب وقد انقطع ما بيننا وبينه من حبال التواصل. فلا هو يفهمنا ولا نحن نفهمه.

وينبغي لمن يتصدىٰ للعملِ التجديدي من أخذ ذلك بنظر الاعتبار. وواجب عليه أن يتعلم درساً بليغاً من «فتية الكهف» الذين حكى لنا القرآن قصتهم، فقد أوَوا الى الكهف حفاظاً على إيمانهم من كفر زمانهم، فمكثوا نائمين ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعاً، وعندما انتبهوا من نومهم وجدوا أنفسهم خارج الزمن في المكان الذي ينعدم فيه الوزن التاريخي

للانسان، فحاروا في أمرهم، فلا هم يستطيعون القهقرىٰ الى الزمن الماضي الذي انسلخوا عنه، ولا هم يستطيعون اللحاق بالزمن الذي سبقهم بتسع وثلاثمائة سنة، فحلّ القدرِ هذه المعادلة الصعبة بأسدال ستار الموت بينهم وبين الدنيا، وسحبهم نهائياً مِن فوق مسرح الحياة.

فقطار الزمن لا ينتظر مَن يتخلف عنه، بل يمضي في طريقه لا يلوي على شئ، ويترك مَن وراءه من المتخلفين في عماء من الغبار والدخان.

لقد هزّ «النورسي» بدعوته الى امتلاك ناصية العلوم الحديثة جدران الكهف الكبير المطبق بظلامه على عقول المسلمين، وأهاب بهم الى تقويض هذا الكهف والخروج الى النور والهواء والحياة، وناشدهم الاجتهاد في علوم العصر اجتهادهم في علوم الدين، لانّ كليهما – أي الدين والعلم – وجهان لعملة إلهية واحدة، أو هما نصفان لا تتجلى الحقيقة الإلهية بكامل حكمتها إلاّ باجتماعهما معاً.

(٦)

لقد عاش «النورسي» الى جانب حياته الشهودية وزمانه الدنيوي المحسوب بالأيام والسنين زماناً قرآنياً آخر يتلاطم موجه في روحه و عقله وكيانه، مندفعاً اليه من روح القرآن ومن زمانه الأبدي المهيمن على حبّات وجوده، والساري في خلايا سمعه وبصره ومخه وعظمه وعصبه. ومن هنا جاءت هذه القوة الغامضة التي يملأ بها نفوس جلسائه وعقول قرائه. فالكلمة الواحدة من كلامه بعفويتها تنطوي على ما في نفسه من قوىٰ القرآن كلها، وعلى سرّ أزليته وأبديته.

وكما يضع الكون سرّ بعض قواه في النواة من جسم الذرّة، هكذا يضع «النورسي» في الكلمة الصغيرة من كلامه، كلَّ ماصبّه القرآن من قوىٰ في نفسه، وأفرغه في وجدانه. فلا غرابة – والأمر كذلك– أن يحسّ

قارئه أو سامعه وكأنّ شيئاً ينفجر في داخله، فيُسْمَعُ له دويٌّ إيماني يسري صوته في الزمن ولا يقف حتىٰ يغيب في قلب الأبدية.

فلحظة إيمان واحدة من إنسان تتسع وتستطيل وتتحول - بفاعلية الإيمان - الىٰ زمان أبديٍ من النعيم المقيم - كما يقول النورسي - والعكس كذلك صحيح، فلحظة كفر واحدة تتضخم وتتسع وتمتد لتتحول الى زمان أبدي من الجحيم.

فإذا كان «الكون» على سعته وامتداده، يمكن أن يختزل بعض أسراره في ذرّة من ذرات جسمه. فأنّ الزمن الكوني - مهما طال واستطال - يمكن كذلك أن يتضامّ وينكفئ في لحظة زمنية قصيرة المدى. فالمسافات الزمنية الموغلة في أمدائها قد تطويها لحظة زمنية خاطفة أو لحظات او دقائق او ساعات.

فعلىٰ ضوء هذه الحقيقة تصبح معجزة الإسراء والمعراج «على صاحبهما أفضل الصلاة والسلام». كما يعرضها «النورسي» في رسالة «المعراج» في متناول أفهامنا، وكذلك يصبح مفهوماً لدينا إحضار «عرش بلقيس» الى مجلس سليمان «عليه السلام» في طرفة عين.

فطي الزمان والمكان لأصحاب القوى الإيمانية الخارقة أمر ثابت من الدين بالضرورة. وقد أشار اليه الصوفية في كتبهم قبل أن يراود خيال القصاصين من أدباء الخيال العلمي في الغرب بزمن بعيد.

(٧)

إنّ إحساس «النورسي» بالزمن يبلغ درجة عالية من الانشداد والتوتر يجعله يشعر وكأنه يتدفق بتياره العظيم الهادر عبر عقله وروحه قبل كل شئ، وإنه ليرقب عمله الدؤوب في المحو والإثبات، والسلب والإيجاب،

فيمضي فوق كل شئ في هذا العالم فيمحو ما حقّه المحو، ويثبت ما حقّه الاثبات، ويقذف بالسلب الى هاوية العدم، وبالايجاب الى عالم الوجود. غير أنّ الخطورة كلّ الخطورة عندما يتوقف الزمن عند نقطة معينة من عقل المسلم ووجدانه ويعجز بكل قوته واندفاعه وهديره عن اجتياز حواجزه العقلية والنفسية، لأنّ إحساساً بالتوقف عن الحياة سينتابه ويشلّ قدرته على الابتكار والتجديد، ويعطل إرادته عن التخطيط لكى يكون الآن وفي المستقبل غير ما كان عليه بالامس، وعندئذ يأسن نهر الزمن في قعر وجوده، وتبدأ رائحة العفن تفوح من أفكاره ويشرع الانحلال والتشتت يغزوه وينخره من الداخل، ويصبح مهيأً للسقوط في دوامة الحياة اليومية وفي رتابتها المملة، بينما يتوقف جهاز الاستقبال عنده عن تلقي ما يرسله اليه العالم من رسائل، ويبثه من شفرات ورموز، ويجمد لديه حسّ الانشداه الإيماني الذي يرى البكارة والجدّة في كل شئ ينحسر عنه الزمن مهما بدا مألوفاً وعادياً.

ولهذا السبب ربط الاسلام بين عبادات المسلم وبين الزمن، في اليوم والليلة وفي الأسبوع والشهر والسنة. فلكل وقت عبادته الخاصة به، ولكل عبادة – جسدية او نفسية – لونها وطعمها الخاصان بها، دفعاً للملل، وتجديداً لقوىٰ النفس، وتحفيزاً لأعصاب الروح كما يرى «النورسي».

فالأذان – مثلاً – من فوق منائر المساجد المنتشرة في كل مدن العالم الاسلامي، ما هو الا صوت الزمن الهادر يقرع أذن المسلم خمس أوقات في اليوم والليلة، منبهاً الى أنه يمرّ ويمضي سريعا، وان عليه ان يظلّ يقظاً ويبقي على انشداده الروحي والتعبدي ولا يسمح لنفسه بالوقوع فريسة العوائد التي تأخذه في دوامتها لتنيسه الزمن وتصمّ أذنيه عن ندائه وهتافه.

فما من أحد يمكن أن يرتقي الى خارقة الفهم عن الزمن إلاّ إذا خرق عوائده أولاً. واخترق مألوفاته، وانسلّ من دوامة السطحية التي لا ترىٰ جديداً تحت الشمس، ليرىٰ كل شئ – في الحقيقة – جديداً تحتها مهما بدا عتيقاً او مألوفاً.

إنّ القرآن نفسه يدعو المسلم الى عدم التوقف عند درجة معينة في إرتقائه الايماني، بل يطلب منه أن يمضي صعداً في هذا الارتقاء الذي لا نهاية له، وأن يبقي روحه وعقله معلقين بالقرآن ليكشف له كلّ يوم جديد عن معنىٰ قرآني جديد، يزيد معارفه و علومه، ويغني أفكاره ويجددها.

ففي إشارة القرآن الى بعض شؤون الربوبية يقول: ﴿ **كُلّ يوم هو في شأن** ﴾ (الرحمن: ٣٠) من شؤون خليقته و عبيده. فيلهم البعض أفكاراً جديدة، ويقذف في عقول آخرين علوماً مبتكرة. ويرفع بهذه العلوم والأفكار أقواماً، وينزل بآخرين، ويحي بها موات أقوام ويحجبها عن آخرين، ويقدر مقادير الخلق ويقضي فيهم بما يشاء، فيعطي ويمنع، ويُضحك ويبكي، ويُمرض ويشفي، الى غير ذلك من الشؤون، لحكمة هو يعرفها ولا نعرفها، في أُطر من العلل والمعلولات التي تحتجب وراءها يد الله كما يقول «النورسي».

(٨)

فالزمن هو ظلّ الكون، ونبض امتداده الدائم، وخفق حركته التي لا تتوقف، فهو إذن خارج تخوم الارادة الانسانية، وخارج حدود سيطرتها، إلا أنه – أي الزمن – قد أباح للانسان الحضور بإرادته ليسهم مع القدر في تشكيل التاريخ البشري، الوجه الثاني من الزمن الذي يمكن لإرادة الانسان ان تمارس وجودها وفاعليتها فيه.

فطرف التاريخ القريب والمشهود بيد الانسان، بينما طرفه الغيبي البعيد بيد القدر. فيد الانسان ويد القدر تسهمان معاً في تشكيل أحداث التاريخ ووقائع أيامه كما يقول «النورسي»

وهذا لا يعني بداهة أنّ الانسان واقع تحت جبرية قدرية لا يستطيع الانفكاك عنها . او الاستقلال بإرادته من دونها، لأنّ «القدر» – في الحقيقة – لا يتدخل مباشرة ولا يمارس ضغوطاً في عملية صنع التاريخ وصياغة احداثه ووقائعه، بل يلهم من وراء الغيب البعيد شخوص المسرح التاريخى ما ينبغى فعله إزاء واقعة معينة، وفي زمان ومكان معينين.

فحين أراد «القدر» أن يهئ «موسىٰ» عليه السلام للتصدي لفرعون خطط لأنقاذ طفولته من القتل، فألهم أمه ما ينبغي أن تفعله: ﴿ **أن أقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليمّ فليلقه اليمُّ بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له** ﴾ (طه: ٣٩).

فهذا الطفل الرضيع لم يكن ليصلب عوده، ويشتد ساعده، ويصبح مهيأً لتحّمل تكاليف النبوة والرسالة، مالم يُخلّ – بادئَ ذي بدء– بينه وبين الحياة، لتفركه وتعصره عصراً، وتجعله يتقلب في أتونها، ويتجرع حلوها و مرّها . ويخوض في سهلها و حزنها، تحت عين الله : ﴿ **ولتصنع على عيني** ﴾.

والقدر بعد هذا لا يفعل اكثر من أن يستفز – في غمرة الاحداث عِرْق البطولة في النفوس، ويثير بلسان الوقائع الحسّ البطولي في الوجدان، ويهيج شعور الرجولة في الذات، ثم يمضي ويترك للانسان صاحب الشأن الحرية كاملةً في الاستجابة لهذه المحفزات والارتفاع الى مستوىٰ المسؤولية التاريخية، او عدم الاستجابة لها.

فأصحاب النفوس العظيمة هم وحدهم القادرون على أن يستوحوا القدر. ويستبطنوا إرادته، ويصيخوا لهتافه، ويستوعبوا إشاراته، ويفهموا عنه، فيسارعوا بالإستجابة، ويحظوا بشرف الإمساك بطرف التاريخ المحدود اليهم من القدر. ليسهموا معه في توجيه مساره، وصنع أحداثه ووقائعه .

وأما الذين يضعون أصابعهم في أذانهم، ويستغشون ثيابهم، وينكصون على أعقابهم، فلا يعبأ بهم القدر لأنهم غير جديرين بامتلاك التاريخ من جانبه الإنساني.

(٩)

فالواقعة التاريخية بيد الإنسان عمل إبداعي ينبعث وميضه من إرادة الإنسان فوق صفحة الزمن بغض النظر عن حكمنا الأخلاقي عليه.

وهذه الإرادة لا تحقق حضورها في التاريخ، إلا إذا بلغت من القوة والحيوية والاندفاع حدّ البطولة. لتزيح من طريقهاجميع الإرادات البشرية المناوئة والمضادّة. ولتمضي في الطريق نحو التشكل فعلاً تاريخياً معيناً بشرط ألاّ تصطدم بإرادة الكون المتمثلة في سننه ونواميسه لانها غالبة لا محال وبشرط آخر هو ان يمنحها القدر الإلهي جواز مرور نحو الهدف الذي تريد والذي لابد أن يخدم بمحصلته النهائية غايات القدر ومقاصده.

ولئن كان رجل التاريخ يعالج الواقعة التاريخية ويشكّلها من طينة الحاضر وخاماته التي بين يديه، غير أن « القدر » بشموليته وإحاطته بالماضي والحاضر و المستقبل يبصر خارطة التاريخ البشري بأبعاده الثلاثة . ويحدد مواقع الاحداث فوقها، فتأتي أحكامه على الحدث من هذا المنظور

الشمولي المحيط الذي لا يأبه بقصور نظر الانسان وخطأ حكمه على الحدث.

فالقدر هو المهندس الأعظم الذي يصمم خارطة بناء التاريخ البشري بأسره، فهو يمتلك علماً كاملاً عمّا سيكون عليه هذا البناء بعد الفراغ من تشييده، بينما لا يمتلك البنّاءون البشر تصوراً متكاملاً عن الصورة التي سيتشكل فيها بناؤهم في خاتمة المطاف. فتتوالى اعتراضاتهم واستنكاراتهم حول ما يحسبونه خطأً في التصميم ضمن جوانب جزئية من البناء. يحصرون همّهم فيها لعجزهم عن الاستيعاب الكلي والشمولي.

فقد يستنكر الانسان وقوع حدث ما باعتباره – من وجهة نظره المحدود والقاصر– شراً ما كان ينبغي للقدر بخيريته وقدسيته أن يسمح له بالمرور والتحقق، من غير أن يستشف ما يمكن أن يؤول اليه في المستقبل القريب أو البعيد من خير،فالانسان كثيراً ما يخطئ في الحكم على أخص شؤونه الحياتية. فيرى الشئ فيحسبه خيراً له، بينما يراه القدر شراً له. والعكس صحيح أيضاً . والى هذا الاشارة في قوله تعالىٰ: ﴿ **وعسىٰ أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسىٰ أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم** ﴾ (البقرة: ٢١٦).

هكذا ينظر « النورسي » الى التاريخ البشري بعامّة والاسلامي بخاصة. فهو يرىٰ أنّ ما من شئٍ يحدثه القدر في هذا العالم الاّ وهو جميل بذاته، او جميل بما سيفضي اليه من الجمال في غيره .

(١٠)

وحين نقلب صفحات التاريخ يطالعنا من خلالها جسد البشرية الشبحي مثخناً بالجراح والآلام، وتتراءىٰ لنا رؤاها الدموية والعدوانية.

وتتماثل أمامنا صور احلامها الحمراء، وتفجؤنا أفكارها المتقاتلة، وحضاراتها المتصارعة.

لأنّ الانسان – الذي يمسك بأحد طرفي التاريخ – هو معضلة الكون الكبرىٰ التي أعياه حلّها، ورغم أنه كائن كوني، إلاّ أنه الكائن الوحيد المتمرد على قانون «التعاون والتساند» المهيمن على الكون كما يرىٰ «النورسي» .

هذا القانون هو الذي منح الكون جماله ونظامه، وأشاع فيه الأمن والأمان، ورسم لكل جزء من أجزائه عمله ووظيفته، فلا صدام ولا صراع، بل تعاون وتساند: ﴿ **لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلّ في فلك يسبحون** ﴾ (يس: ٤٠) يعاون بعضها بعضاً ويؤازر بعضها بعضاً كلٌّ ضمن سيره و عمله.

غير أن الصراع هو القانون الأشدُّ هيمنةً علىٰ بني الانسان، فكثيراً ما يخفت فيه صوت العقل، ويرتفع صوت غرائزه البدائية المتوحشة. فتدفع به الى الاستذئاب ضد أخيه الانسان، فلا يفلته حتىٰ ينشب مخالبه وأنيابه فيه، إشباعاً لرغبته في التملك والاستحواذ على الآخرين والتفوق عليهم. وقد نبهّ «النورسي» الى خطورة ذلك على البشرية. وبين أن شقاءها راجع الىٰ تمردها على «قانون التعاون والتساند» الكوني. ودعا المسلمين الى الإلتزام بهذا القانون واحترامه والخضوع له، لاسيما في هذا العصر، عصر الجماعات وليس عصر الأفراد، فيجب أن يكون – كما هو الكون – المسلم الواحد في خدمة كل المسلمين، وكلُّ المسلمين في خدمة المسلم الواحد.

(١١)

فعصرنا الذي نحياه يبلغ بثقل حضارته – وضغوط أفكاره ومذاهبه، وكثرة ما يطرحه من إشكاليات فكرية وحضارية – مالم يبلغه عصر قبله.

فالانسان وحده – مهما كانت إمكاناته – غير قادر على تحمل ضغوط العصر. ومواجهة تحدياته مالم يجد في الآخرين السند الذي يستند اليه، والعون الذي يعينه ويقويه ويغريه بقبول التحديات وحل العقد والأشكاليات.

« فالانسان الكامل » الذي يرد ذكره على ألسنة الصوفية في كتبهم، أو « الانسان المتفوق » كما يطلق عليه الغربيون. والذي يحلم هؤلاء وهؤلاء بالوصول اليه عن طريق الذاتية الفردية والانكباب على « الذات » وتزكيتها صوفياً أو فلسفياً، يمكن للجماعة المؤمنة – بشخصيتها المعنوية أن تقوم مقامه، وتشكل وجوده، لأنّ ما ينقص أي فرد منها من خصائص الكمال يمكن أن يجده عند إخوانه من الجماعة المؤمنة فـ (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً) كما قال عليه الصّلاة والسّلام، وشبّك بين أصابع يديه الشريفتين.

فالفرد – كما يقول النورسي – مهما بلغ من العبقرية، فهو يفكر بعقل واحد، وينظر بعينين ويسمع بأذنين، ويعمل بيدين، وينطق بلسان واحد، ولكنه عندما يكون واحداً من عشرة، فأنه يفكر بعشرة عقول، وينظر بعشرين عيناً، ويسمع بعشرين أذناً، ويعمل بعشرين يداً، وينطق بعشرة ألسن.

فالكل هنا يندغم في « الواحد » و « الواحد » يندغم في « الكل » فلا عجب إذا ما كونت شخصية الجماعة المعنوية مثال الانسان الكامل المنشود.

(١٢)

فرسائل النور الثلاثون والمئة التي كتبها « النورسي » وأملاها على طلبته، تشكل كل رسالة منها جزءاً من فكرها العام الذي يحتويها جميعاً، وتبين عن شخصيتها المعنوية المستقلة بذاتها عن كاتبها، حتىٰ أنّ « النورسي » لينظر فيها، ويستشهد بها، ويحيل عليها، وكأنها ليست من بنات أفكاره، اومن نتاج عقله، او كأنّ كاتبها شخص آخر غير شخصه.

فهذه الرسائل ترسم ملامح « الانسان الكامل الجمعي » كما ينبغي أن يكون، وتحاول أن تبعثه مثالاً حياً بشموخه ونبله وعمق إيمانه، وسعة عقله، وطهر سلوكه، ونقاء روحه وضميره، ليصبح المحور الذي يدور حوله طلبته، ويجتمعون عليه كما يجتمعون على إنسان حي من لحم ودم. مكونين بذلك الجماعة المؤمنة بذات معنوية واحدة، هي الانسان الكامل الذي يسعىٰ اليه فلاسفة الصوفية، وصوفية الفلاسفة.

فإذا كان الانسان الفرد هو البشرية كلها مختزلة فيه، والبشرية هي الانسان الفرد مضخماً ومكبراً: ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفسٍ واحدة** ﴾ (لقمان: ٢٨). ﴿ **مَنْ قَتلَ نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً ومنْ أحياها فكانما أحيا الناس جميعاً** ﴾ (المائدة: ٣٢). فكذلك الجماعة المؤمنة هي كل فرد من أفرادها، وكلُّ فرد من افرادها هو الجماعة المؤمنة بأسرها.

وهذا هو المجتمع الإيماني الذي يؤشر بعض ملامح « عصر النبوة السعيد » الذي يذكره « النورسي » في رسائله ويستشهد به، باعتباره المجتمع النموذجي الذي تتطلع اليه الانظار وتهفو اليه الأفئدة.

وإنّه – أي النورسي – ليأمل أن ضمير الغيب سينفتح يوماً ما عن الشباب المؤمن الطاهر وسيقذف بهم الزمن الى عالم الشهادة ليبنوا مجتمع الإيمان ويعملوا على إحياءِ العلوم الإيمانية بكل أبعادها الحياتية، والإلتزام بها طواعيةً لأنها إلتزام بالحياة نفسها: ﴿ **ياَ أيّها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ (الانفال: ٥٤).

والبشرية نفسها وهي تعاني اليوم فقراً روحياً مدقعاً، وبؤساً إيمانياً مخيفاً تنتظر انبثاق الفجر الإيماني المرتقب ليجدد روحها الذي شاخ وهرم ويغذوه بالنور والحياة ويعيد اليه شبابه ورواءه.

فإحياء العلوم الإيمانية عندما توشك على الموت والاندثار يعجل – بلا شك – بقدح زناد الإنفجاز الإيماني الكبير في قلب الأمة ووجدانها. فالناظر بدقة الى ما كتبه «الغزالي» رحمه الله في كتابه «إحياء علوم الدين» وما كتبه «النورسي» رحمه الله في «رسائل النور» يلمح اكثر من آصرة وسبب يصل بين المؤلّفَين وبين صاحبيهما.

فعصر «الغزالي» «٤٥٠– ٥٠٥هـ» عصر ضاعت فيه العلوم الإيمانية، وفقدت جدّتها وحيويتها بين عشرات الفرق والمذاهب المتصارعة.

فجفاف الفقهاء ويبس ارواحهم كاد يطفئ نور القلب في الانسان المسلم، والفلسفة اليونانية بقالبها الاسلامي المزعوم وبتجريداتها وصلت بالألوهية الى حدّ الضبابية والشبحية والتهريم في «اللاّوجود». أما الظاهريون والحرفيون فقد أوشكوا على الوقوع في التجسيم. والباطنيون فسروا النصوص تفسيراً باطنياً رمزياً موغلاً في التمحل والبعد عما يتسع له

النص وأساليب العربية في البلاغة والبيان. أضف الى هذا كله مجموعة كبيرة من الزنادقة والملاحدة المتسترين وراء شتىٰ المذاهب والجماعات والفرق. فأخذ «الغزالي» على عاتقه مهمة التصدي لانحرافات بعض الفرق، وتفنيد أباطيل البعض الآخر، وآل على نفسه أن يعيد ماء الحياة الى علوم الدين من جديد، فصنف كتابه العظيم «إحياء علوم الدين» هذا الكتاب الذي أعاد لعلوم الدين النقاء والصفاء، فكان السبب في إذكاء شعلة التوق الىٰ الله تعالى في قلب الامة بعد ما كادت تختنق وتنظفى تحت ركام الدمار الروحي الذي أصابها.

وعصر «النورسي» «١٢٩٤ -١٣٧٩ هـ» يشبه في أباطيله عصر «الغزالي» مع الاخذ بنظر الاعتبار ما أضافة فارق الزمن بين العصرين من إضافات وتعقيدات. فهو عصر زلزالي خطير، هزّ كل ما توارثته البشرية من قيم ومثل وأفكار. وأشاع فيها الفوضىٰ والاضطراب والشك والقلق، وهو زمن التفجرات الفكرية والنفسية للبشرية قاطبةً.. وهو عصر الثورة والتمرد على الدين والإيمان والفضيلة..

وهو أيضاً عصر «تأليه العلم» وعبادة «العقل والطبيعة» وهيمنة الشك حتىٰ على مسلمات الانسان وبدهياته المنطقية وأصوله العقلية.

فبادر «النورسي» كالغزالي الى التصدي لهذا الطوفان اللاديني المخيف، وشرع في كتابة «رسائل النور» وفي محاولته لإنقاذ الإيمان مما يتهدده من مخاطر الزندقة والإلحاد كان لابد له من العمل بقلمه على إذكاء شعلة التوق الى الله من جديد في قلب الأمة وضميرها، فكان «النور» وكانت «رسائل النور».

ولو قُدّرَ لي - يوماً ما - أن التقي قبره الضائع بين القبور لاستأذنت طلابه في الكتابة على شاهد قبره هذه العبارة:

(هنا يرقد واحد من أعظم مَنْ كتب للإيمان في هذا العصر ومن اكثرهم معرفةً بإذكاء شعلة التوق في القلوب الى الله)

رحم الله «النورسي» وجزاه عن الإيمان والمؤمنين خير الجزاء.

* * *